أَحوَالُ النَّاسِ مَعَ التَّوحِيدِ!

(رِسَالَةٌ هَامَةٌ لِلإِخوَةِ المُتَناصِرِين)

بِقَلَمِ:

أَبِي حَفصٍ الأَزدِيّ

مؤسسة أشهاد الإعلامية

١٤٣٨ للهِجرَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من أبي حفص الأزدي إلى من يصل إليه من أهل التوحيد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

قال الله ﷻ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾! [الشورى:٥٢]؛ وقال: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة:١٥-١٦]؛ وقال: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾!! [فصلت:٤١]؛ وقال: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾! [الواقعة:٧٥-٧٧]؛ فهذا القرآن رغم كونه نورًا وهدى ورحمة بل وروح إلا أنه عزيز يسعى الخلق إليه وهو لا يتبع معرضًا، بل ومن تمام عزته أن من لم يُقبل عليه بكُلّيته ويستغني به عما سواه يكون جزاؤه أن يضل به ويزيغ قلبه ويزداد به رجسًا!! كما قال ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾ [الكهف:٥٧]؛ وقال: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [الصف:٥]؛ وقال: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ [البقرة:٢٦]؛ وقال: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾! [التوبة:١٢٤-١٢٥]؛ **فهذا القرآن عزيز ولا يمكن أن تنال منه خيرًا إلا بما تنال من أصحاب العزة من أهل الدنيا!** أما من استهان به وأعرض عنه فجزاؤه الضلال في الدنيا والنكال في الآخرة.

وإن أعظم ما يتعلم العبد من القرآن هو توحيده لربه الذي لا نجاة له إلا به! والذي إذا ضيع لم ينفع العبد بعده صلاة ولا صوم ولا صدقة ولا جهاد ولا غير ذلك إذ لا حياة لبدن لا رأس له وفي الحديث: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»؛ ولما كان الأمر كذلك كان أعظم ما اعتنى به القرآن هو بيان التوحيد الذي بعثت به جميع الرسل وذكر أحوال الناس معه، إلا أن الله قد جمع ذلك كله في ثلاث آيات من كتابه إفتتحها بنداء الناس أجمعين! فقال: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [يونس:١٠٤-١٠٦]؛ قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى عن هذه الآيات: «**فيها ثماني حالات:**

الأولى: ترك عبادة غير الله مطلقًا، ولو حاوله أبوه وأمه بالطمع الجليل والإخافة الثقيلة، كما جرى لسعد مع أمه» وذلك لقوله: ﴿**فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّه**﴾، أما سعد الذي ذكره الشيخ هنا فهو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ﷺ كان من أوائل من أسلم، دعاه أبو بكر الصديق ﷺ إلى الإسلام فأسلم وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان سعد أبر الناس بأمه، يقول ﷺ: «ما سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها وكنت فتى بارًا بها محبًا لها، فأقبلت عليَّ تقول: يا سعد ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين أهلك وأبيك؟! والله لتدعن دينك الجديد أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فيتفطر فؤادك حزنًا علي ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت ويعيرك الناس أبد الدهر!، فقلت: لا تفعلي يا أماه فأنا لا أدع ديني لأي شيء»، إلا أنها اجتنبت الطعام والشراب ومكثت على ذلك أيامًا حتى هزل جسمها وخارت قواها فلما رآها سعد كذلك قال لها: «**يا أماه والله لو كان لك مئة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي!**» فأكلت وشربت على كره منها؛ **فهذه هي الحالة الأولى من حالات التوحيد ألا وهي: "ترك عبادة غير الله مطلقًا"[1]، وقد خالف فيها من خالف ممن عبد قبرًا أو حجرًا أو تحاكم إلى غير الله!**

قال الإمام محمد: «**الحالة الثانية:** أن كثيرًا من الناس إذا عرف الشرك وأبغضه وتركه، لا يفطن لما يريد الله من قلبه من إجلاله، وإعظامه، ورهبته، فذكر هذه الحال بقوله: ﴿**وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾» وهذا والله أحوج ما نكون إليه، إذ أكثر الناس ينشغل بمظاهر التوحيد ويغفل عن حقائقه! مع كون حقيقة التوحيد -التي يبينها القرآن- هي تعظيم الله ومحبته التي يمتنع معها أن يجعل له شريكًا جل في علاه، قال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر:٦٥-٦٧]؛ وقال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾! [البقرة:١٦٥]؛ **فكل من ترك عبادة غير الله ولم يجد في قلبه محبة الله وتعظيمه فليراجع توحيده**، والآية هنا تعلمك كيف يحصل في قلبك هذا الإجلال والتعظيم فتقول: ﴿**أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾ في إشارة إلى **أن من أعظم أسباب إجلال العبد لربه النظر في أمر الموت واحوال الناس فيه وأخبار القبور وأهوال الآخرة وغير ذلك مما يدخل في "الإيمان باليوم الآخر" فكلما زاد إيمانك به وتفقهك فيه كلما زاد تعظيمك لله** ﷻ، وهذه هي الحالة الثانية وقد

---

[1] واعلم أن من العبادة لغير الله التحاكم إلى غير الكتاب والسنة كما قال ﷻ: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾!! [يوسف:٤٠].

خالف فيها من خالف ممن أخبر عنه رسول الله ﷺ أنه يسأل في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: «هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاس، فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»!

ثم قال رحمه الله: «**الحالة الثالثة:** إن قدرنا أنه ظن وجود الترك والفعل فلا بد من تصريحه بأنه من هذه الطائفة، ولو لم يقض هذا الغرض إلا بالهرب عن بلد فيها كثير من الطواغيت الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح بأنه من هذه الطائفة المحاربة لهم!» **أي إن قدرنا أن أحدًا ظن في نفسه أنه حقق المرتبتين الأولى والثانية من مراتب التوحيد فترك عبادة غير الله تعظيمًا ومحبة له جل في علاه فلا بد حينئذ من التصريح بأنه من هذه الطائفة طائفة التوحيد القائمة بأمر الله** التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال**»؛ فهذه الطائفة لا يخلو منها زمان فالواجب على كل موحد أن يصرح بأنه من تلك الطائفة التي في زمانه لقوله في الآية "وأمرت"! قال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة:١١٩]؛ وقال: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]؛ فلا يكفي للعبد أن يؤمن في خاصة نفسه فقط بل لا بد من أن يكون مع طائفة المؤمنين القائمين بالدين "الصادقين" في دعواهم الإيمان وقد بين لنا القرآن من هم هؤلاء الصادقين فقال: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون**﴾ [الحجرات:١٤-١٥]؛ وهذه الآية تشبه حديث الطائفة المنصورة الذي سبق ذكره وكل من الآية والحديث خصا بالذكر "الجهاد" وذلك أنه من أخص خصائص هذه الطائفة لا يتوقفون حتى يقاتل آخرهم الدجال!، والمقصود أنه لا بد من الانتساب إلى أهل الحق وإذا فعل العبد ذلك فحينئذ لا بد أن يعاديه أهل الباطل كما قال ورقة بن نوفل ﵁ لرسول الله ﷺ: «يا ليتني فيها جذعًا أكون حيًا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟! فقال ورقة: نعم! **لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي**»، قال ابن القيم رحمه الله بعد أن عد عقبات الشيطان في طريق المؤمن: «فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه وهي: عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير، فكلما علَت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله،

وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية "المراغمة"!، ولا ينتبه إليها إلاّ أولو البصائر التامّة، **ولا شيء أحبَ إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له**، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه أحدها قوله: ﴿**وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً**﴾ [النساء:١٠٠]؛ فسمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله "مراغمًا" يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠]؛ وقال ﷻ في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ [الفتح:٢٩]؛ فمغايضة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها كمال العبودية، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين وقال: (**إن كانت صلاته تامة كانتا "ترغمان" أنف الشيطان**) وفي رواية: ("ترغيمًا" للشيطان) وسماها (المرغمتين).

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمد التبختر بين الصفين!، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر حيث لا يراه إلا الله! لما في ذلك من "إرغام" العدو وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!»[٢]، فهذه هي الحالة الثالثة أخذها المصنف من قوله ﷻ: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:١٠٤]؛ وقد خالف فيها من خالف!

ثم قال «**الحالة الرابعة:** إن قدّرنا أنه ظن وجود هذه الثلاث، فقد لا يبلغ الجد في العمل بالدين، والجد والصدق هو "إقامة الوجه للدين"» والإيمان قول وعمل، فهو بعد أن تطهر من الشرك ظاهرًا وباطنًا، وكان سبب تركه له تعظيم الله ومحبته، وفاصل المشركين وتبرأ منهم وأظهر توليه للمؤمنين، بعد أن أتى بهذه المراتب الثلاث فإنه لا بد له من عمل صالح يصدق قوله! فأمر بإقامة الوجه للدين وعدم الإلتفات لغيره والجد والإجتهاد في الطاعة، وكثير من الناس لا يستحضر عند تعبده لربه أنه يطبق التوحيد وتكون نظرته

---

[٢] [المدارج: (٤١٣/١)].

للعبادات نظرة "فقهية" مجردة وهذا خلل إذ الأساس أن كل عبادة هي صورة من صور تطبيق التوحيد بل "الفقه" في حقيقته ما هو إلا توحيد تحاكم لله!، **والمقصود أن رابع المراتب في التوحيد هي إقامة الوجه للدين بالجد والإجتهاد في العمل به ومن أجله وقد خالف فيها من خالف!**

ثم قال: «**الحالة الخامسة:** إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الأربع، **فلا بد له من مذهب ينتسب إليه، فأمر أن يكون مذهبه الحنيفية، وترك كل مذهب سواها ولو كان صحيحًا، ففي الحنيفية عنه غنية**»؛ فإذا قيل له: ما هذا المذهب الذي أنت عليه ومَن إمامك فيه؟! قال: مذهبي هو "الحنيفية" وإمامي فيه إبراهيم الخليل عليه السلام الذي أمر الله رسوله ﷺ باتباعه فقال: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل:١٢٣]؛ وقال: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ [البقرة:١٣٠]؛ و"الحنف" في اللغة هو: الميل، وسميت ملة إبراهيم بالحنيفية لميلانها عن الشرك وأهله ومفارقتها لهم، وملة إبراهيم قد بينها ربنا جل وعلا على جهة التفصيل في قوله: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [إبراهيم:١٠٤]؛ فهي مشتملة على البراءة من المشركين وآلهتهم وتكفيرهم وبغضهم بالقلب وعداوتهم بالسيف واللسان حتى يؤمنوا بالله وحده كما قال ﷺ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بالسَّيْفِ، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

قال الإمام محمد رحمه الله: «**الحالة السادسة:** أنّا إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الخمس، فلا بد أن يتبرأ من المشركين، فلا يكثر سوادهم» وهذه أخذها من قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الروم:٣١]؛ وكلمة "لا تكون من المشركين" عامة تشمل كل موافقة لهم ويدخل فيها آلاف الصور من الموافقة لا بد فيها من مفارقتهم ظاهرًا وباطنًا، وهنا ذكر الشيخ صورة هي من أظهر صور المفارقة للمشركين ألا وهي "الهجرة" من أرضهم كما فعل إبراهيم عليه السلام إذ لما جاء بالحالات السابقة ما كان من قومه إلا أن عادوه كما قال تعالى: ﴿**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات:٩٧-٩٩]؛ فالهجرة من لوازم التوحيد فعن جرير بن عبدالله: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فقال: (**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِين، لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا**)»؛ وقال: «**مَن جَامَعَ الْمشرِك أَو سَكن مَعَه فهوَ مِثله**»! ﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)**

فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٨-٩٩]؛ وفي الحديث: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ، فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**»، فهذه هي الحالة السادسة وقد خالف فيها من خالف!

ثم قال: «**الحالة السابعة:** أنّا إن قدرنا أنه ظن وجود الحالات الست، فقد يدعو من غير قلبه نبيًا أو غيره لشيء من مقاصده، ولو كان دينًا يظن أنه إن نطق بذلك من غير قلبه لأجل كذا وكذا خصوصًا عند الخوف، أنه لا يدخل في هذا الحال فإنه يكفر»؛ وهذه أخذها من قوله ﷻ: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾ [يونس:١٠٦]؛ فالشرك يكفر فاعله ولو لم يعتقد أنه حق كما قال الإمام محمد هنا "من غير قلبه" بل ولو أقر بلسانه أنه باطل كمن يحكم بالقانون مثلًا ثم يقول أنا أعلم أني مخطئ لأن الشرك لا عذر فيه إلا بالإكراه، ثم قال "خصوصا عند الخوف" ومراده هنا الخوف المجرد الذي لا يستند إلى سبب مباشر، فلا يعتبر هذا عذرًا يرخص الوقوع في الكفر بإظهار الموافقة بالقول؛ لأن الباعث عليه هو الطمع في المال أو الجاه أو العافية والحرص والرغبة في إيثار الدنيا على الآخرة فهو ليس كالتهديد الفعلي الحقيقي بالضرب الشديد والإيذاء والسجن والتعذيب الذي يكون المهدد فيه قادر على إيقاعه، فهو خوف متوهم وليس إكراه حقيقي يتيقن المكره من وقوع الضرر فيه عليه، ولما كان الكفر أعظم المحرمات، لم يجز للمسلم الوقوع فيه إلا بسبب مباشر وتهديد حقيقي يخاف منه على نفسه، أما الحرص على الدنيا والخوف من نقص شيء منها فليس بعذر يرخص فيه الكفر بالله العظيم. ويبين ذلك قوله ﷻ: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل:١٠٦]؛ **فالإستثناء في الآية هو للمكره، وليس للخائف المتوهم، أو الخائف الطامع**، وسبب نزول الآية يوضح ذلك، فقد وقع على آل ياسر من العذاب الشيء العظيم، حتى قتلت سمية وياسر، وأوذي عمار بأشد أنواع الضرب والتعذيب، ثم رخص له النبي ﷺ في التلفظ بالكفر، ولم يكن عمار متوهمًا ولا طامعًا في الإحتفاظ بجاهه ومنصبه وماله، بل كان يرد عن نفسه أشد أنواع العذاب الذي تعرض له، ويؤكد ذلك تكملة الآيات فقد قال ﷻ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ**

الْكَافِرِين﴾ [النحل:١٠٧]؛ فانظر كيف نفى الله العذر عن كل من أخلد إلى الدنيا، وآثر شهواتها، وركن إلى حظوظها!

ومثله قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾** [المائدة:٥١-٥٢]. قال الشيخ: "لشيء من مقاصده ولو كان دينًا"، أي حتى ولو كان إخلاله بالتوحيد لمقصد ديني -بزعمه- كـ"مصلحة الدعوة" أو "مصلحة الجهاد" وغير ذلك مما يزعم القوم، فمن وافق المشركين على كفرهم كفر سواء فعل ذلك معتقدًا دينهم أو مبغضًا له وسواء فعل ذلك من أجل مصلحة دنيوية أو مصلحة "دينية" متوهمة فهذه هي الحالة السابعة وقد خالف فيها من خالف من: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** [محمد:٢٥-٢٨].

قال رحمه الله: «**الحالة الثامنة:** إن ظن سلامته من ذلك كله لكن غيره من إخوانه فعله خوفًا، أو لغرض من الأغراض، هل يصدق الله أن هذا -ولو كان أصلح الناس!- قد صار من الظالمين؟، أو يقول: كيف أكفره وهو يحب الدين ويبغض الشرك؟»؛ وهذا أخذه الشيخ من قول ربنا ﷻ لخير الخلق ﷺ: **﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾** [يونس:١٠٦]؛ ولو كان لك سابقة في الإسلام!، والمشرك ليس الذي فعل الشرك وحده بل من لم يكفره ولم يتبرأ منه ولم يعاديه ومن جادل عنه واعتذر له! قال الشيخ عبداللطيف آل الشيخ رحمه الله: «**والمرء قد ينجو من -فعل- الشرك ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من عدم البراءة من أهل الشرك، وترك موالاة أهل التوحيد، ونصرتهم، فيكون متبعًا لهواه داخلاً من الشرك في شُعب، تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولاً وشعبًا، لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض، ولا يعادي ولا يوالي، لجلال من أنشأه وسوّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة لا إله إلا الله!**»، وقد روى الإمام أحمد في المسند وابن عبد البر في كتاب التمهيد: «أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه: أن قل لفلان الزاهد: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إليَّ فقد اكتسبت به العزّ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب، وأي شيء لك علي؟! قال: هل واليت فيّ وليًّا، أو عاديت فيّ عدوًّا!»،

وقد أفتى أئمة التوحيد رحمهم الله: «**بأن من وافق المشركين وأعانهم على المسلمين فحكمه حكمهم، يجب على جميع المسلمين قتاله وجهاده، وأما من أبى عن جهادهم يدعي أنهم إخوان له وأنهم على حق فهذا حكمه حكمهم!، لأنه صوب رأيهم، واعتقد ما اعتقدوه، لا سيما بعد علمه بما صدر منهم**»[٣]، فهذه هي الحالة الثامنة وقد خالف فيها من خالف كما نرى في زماننا الذي كثرت في التراجعات والإنتكاص على الأعقاب وبالله المعاذ أن يعصمنا من الفتن ومن الضلال بعد الهدى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه الحالات الثمان هي خلاصة الدين الذي بعث به رسول الله ﷺ فمن أخل بشيء منها نقص من دينه بقدر إخلاله حتى يذهب عليه دينه كله، ولذلك افتتح الله هذه الآيات بقوله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي**﴾ [يونس:١٠٤]؛ وهذه العبارة تستفز السامع فهي أولًا ابتدأت بأمر الله جل وعلا لرسوله ﷺ بالصدع "قل"!، ثم نادت الناس جميعًا ليسمعوا هذا القول العظيم الذي سيقال!، "إن كنتم في شك من ديني" ولم يتبين لكم ما أنا عليه فهأنذا أبين لكم ديني الذي بعثت به!!، ورغم ذلك نجد اليوم أن هذا الدين أو هذه الحالات الثمان تخفى على أكثر الناس؟! وما ذاك إلا بسبب إعراضهم عن القرآن ولو أقبلوا عليه بقلوبهم لوجدوا هذا النداء والإعلان الرباني الصريح الذي يفهمه كل أحد والذي خاطب به رسول الله مشركي زمانه ففهموه ورحم الله الإمام محمد حين قال في كتابه النفيس "كشف الشبهات": «**فَإِذا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ؛ فَالعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلامَ وَهُوَ لا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الكَلِمَةِ ما عَرَفَ جُهَّالُ الكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُو التَّلَفُّظُ بِحُروفِها مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ القَلْبِ لِشَيْءٍ مِنَ المَعَاني، وَالحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاها لا يَخْلُقُ وَلا يَرْزُقُ وَلا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، فلا خَيْرَ في رَجُلٍ جُهَّالُ الكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنى لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ**»!

ثم ختم الإمام محمد رحمه الله فقال: «وما أعز من يتخلص من هذا! بل ما أعز من يفهمه وإن لم يعمل به! بل ما أعز من لا يظنه جنونًا!.. والله أعلم»؛ ورحم الله الإمام أبو مصعب الزرقاوي حين أخرج محاضرة نفيسة في غربة أهل الحق بعنوان "القابضون على الجمر" جمع فيها فأوعى ولم يدع لقائلٍ بعده مقالًا، ولكن نعود هنا إلى ما بدأنا به رسالتنا فنقول: إن سبب ضلال هذا السواد الأعظم من الناس في هذا الباب هو أنهم طلبوا الهدى فيه من غير كتاب الله فكان جزاؤهم أن تخطّفتهم الضلالات في كل حالة من هذه الثمان حالات: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ [النحل:١١٨]؛ وفي الحديث قال ﷺ: «**ما أصابَ عبدٌ قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال اللَّهمَّ إنِّي عبدُك ابنُ عبدِكَ ابنُ أمَتكَ ناصيَتي بيدِكَ ماضٍ فيَّ حكمُكَ**

---

[٣] [الدرر: (٩\٢١١)].

عدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هو لك سمَّيتَ به نفسكَ أو أنزلتَهُ في كتابِكَ أو علَّمتَهُ أحدًا من خلقِكَ أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندِكَ أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ صدْري وجلاءَ حزني وذهابَ همِّي وغمِّي إلَّا أذهب اللهُ همَّهُ وأبدلَهُ مكانَهُ فرحًا قالوا أفلا نتعلمْهنَّ يا رسولَ اللهِ قال بلَى ينبغي لمنْ سمِعهُنَّ أنْ يتعلمهُنَّ»؛ قال ﷻ: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨]؛ قال أبو سعيد الخدري وابن عباس ﷺ: «**فضل الله "القرآن" ورحمته "الإسلام"**»!، والإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى جرت عادته أن يأتي إلى الآيات التي يأخذها الناس إجمالًا فيفصلها ويأخذها جزءًا جزءًا يستخرج فوائدها كما رأينا فيما مر معنا من كلامه رحمه الله، ومن نظر في تفسير الشيخ وجد أن عامته بهذه الطريقة، ومن بركة القرآن عليه أنه ربما استخرج من الآية الواحدة عشرات المسائل كل واحدة منها تنافس أختها! وهذا والله أعلم بسبب شدة اشتغاله بالقرآن واستغنائه به عما سواه -كما هو ظاهر في كتبه ورسائله- حتى قيل عنه: «**محمد بن عبد الوهاب رجل صنعه القرآن!**»، ولذلك كان كلامه مع كونه عميقًا وراسخًا إلا أنه ميسر تفهمه الخاصة والعامة وكان رحمه الله بحرًا لا تكدره الدلاء، والله نسأل ان يفتح علينا في كتابه وأن يرزقنا حسن تدبره والإهتداء بهديه وأن يرد علومنا كلها إليه فيغنينا به عما سواه إنه جواد كريم.

وفي الختام أوصيك أخي الحبيب بإعادة تدبر هذه الآيات بعدما عرفت قدرها وما اشتملت عليه من الهدى! والحمد لله رب العالمين.